

العبادة

حدّثها ومفهومها

تأليف
العلامة الشيخ جعفر السبحاني



فهرس المطالب

• تقديم

• تخصيص العبادة والاستعانة بالله سبحانه

المسألة الأولى

مفهوم العبادة وحدّها

• ليست العبادة نفس الخضوع أو نهايته

• توجيه غير سديد

• 1 . نظرية صاحب المنار في تفسير العبادة

• 2 . نظرية الشيخ شلتوت، زعيم الأهر

• 3 . تعريف ابن تيمية

التعريف الأول

العبادة هي الخضوع للشيء بما أنه إله

• وادف الإله ولفظ الجلالة

التعريف الثاني

العبادة عبادة عن الخضوع للشيء على أنه ربّ

• نتيجة البحث

• الفرضى في التطبيق بين الإمام والمأموم

المسألة الثانية

حصر الاستعانة في الله

• الآيات التي تنسب الظواهر الكونية إلى الله وإلى غيره

- حصيلة البحث
- اجابة على سؤال
- هل كل دعاء عبادة؟
- الدعاء على قسمين عبادي وغير عبادي



قال الله تبارك وتعالى:

{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}

الصفحة 5

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه وحده نستعين وعليه وحده نتوكل

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد رسله، وخاتم أنبيائه وآله ومن سار على خطاهم وتبعهم بإحسان إلى

يوم الدين.

يهتم المسلمون اهتماماً كبيراً بالعقيدة الصحيحة لأنها تشكل حجر الزاوية في سلوكهم ومنرا يضيء دروبهم وزادا لمعادهم.

ولهذا كرس رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في الفزة المكية من حياته الوسالية نفسه لإرساء أسس التوحيد الخالص،

ومكافحة الشرك والوثنية، ثم بنى عليها في الفزة المدنية صوح النظام الأخلاقي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي.

ولهذا . ونظراً للحاجة المتزايدة . رأينا أن نقدم للأمة الإسلامية الكريمة واسات عقائدية عارة مستمدة من كتاب الله

الغريز، والسنة الشريفة الصحيحة، والعقل السليم، وما اتفق عليه علماء الأمة الكوام، والله الموفق.

معاونية التعليم والبحوث الإسلامية

الصفحة 6

الصفحة 7

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

العبادة من الموضوعات التي تطرق إليها الذكر الحكيم كثيراً. وقد حث عليها في أكثر من سورة وآية وخصها بالله سبحانه

وقال: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا} (الإساءة/23) ونهى عن عبادة غوه من الأنداد الفزعومة

والطواغيت والشياطين، وجعلها الأصل الأصيل بين الشرائع السماوية وقال: **لَيَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا إِيَّاهُ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ** (آل عُرَوان/64) كما جعلها الرسالة المشتركة بين الرسل فقال سبحانه: **لَوْ لَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ فَمَنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ** (النحل/36).

فإذا كان لهذا الموضوع تلك العناية الكبيرة فجددير

الصفحة 8

بالباحث المسلم أن يتناولها بالبحث والتحقيق العلمي، حتى يتميز هذا الموضوع عن غيره تمزواً منطقياً. والذي يُضفي على الراسية، أهمية أكثر، هو أن التوحيد في العبادة أحد مراتب التوحيد التي لا محيص للمسلم من تعلمه، ثم عقد القلب عليه، والتحرر عن أي لوم من الوان الشوك. فلا تتأل تلك الامنية في مجالي العقيدة والعمل إلا بمعرفة الموضوع معرفة صحيحة، مدعمة بالدليل حتى لا يقع في مغبة الشوك، وعبادة غيره سبحانه. ورغم المكانة الرفيعة للموضوع لم نعثر على بحث جامع حول مفهوم العبادة يتكفل بيان مفهومها، وحدها الذي يفصله عن التكريم والتعظيم أو الخضوع والتذلل، وكان السلف (رضوان الله عليهم) تلقوا مفهومها واضحا، واكتفوا فيها بما توحى إليهم فطرتهم.

ولو صح ذلك فإنما يصح في الأمانة السالفة، دون اليوم الذي استنقل عند بعض الناس أمر ادعاء الشوك في العبادة، فيما روج عليه المسلمون منذ قرون إلى أن ينتهي إلى عصر التابعين والصحابة فأصبح . بادعائهم . كل تعظيم

الصفحة 9

وتكريم للنبي، عبادة له، وكلّ خضوع أمام الرسول شوك، فلا يلتفت الائر يمينا وشمالا في المسجد الحرام والمسجد النبوي إلا وتوقر سمعه كلمة "هذا شوك يا حاج"، وكأنه ليس لديهم إلا تلك اللفظة، أو لا يستطيعون تكريم ضيوف الرحمن إلا بذلك. فاللزم على هؤلاء . الذين يعدون مظاهر الحب والود، والتكريم والتعظيم شركا وعبادة . وضع حد منطقي للعبادة، يميز بها، مصاديقها عن غيرها حتى يتخذها الوافنون من أقاص العالم وأدانيه، ضابطة كلية في المشاهد والمواقف، ولكن . وللأسف . لا تجد بحثاً حول مفهوم العبادة وتبينها في كتبهم ونشرياتهم ودورياتهم. فلأجل ذلك قمنا في هذه الرسالة، بمعالجة هذا الموضوع، بشرح مفهومها لغة وقواناً، حيث بيئنا أن حقيقة الشوك في تعاليم الأنبياء أخص مما ورد في المعاجم وكتب اللغة.

جعفر السبحاني

تحرواً في 25 / 2 / 1416 هـ

الصفحة 10

تخصيص العبادة والاستعانة بالله سبحانه

إنّ المسلم في شوق الأرض وغربها، يخصّ العبادة والاستعانة بالله سبحانه في كل يوم في صلواته الخمس فيقول: **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}** ولا خلاف بين المسلمين في هذه الضابطة الكلية، أي أنّ العبادة مختصة بالله سبحانه، ولا يصح إصدار هوية إسلامية لشخص إلاّ بعد الاعتراف بهذه الكوْى، وإنمّا الخلاف بينهم في بعض الأمور والأحوال الخرجية، فهل هي عبادة أو لا؟ فلو صحّت كونها عبادة فلا يجوز الإتيان بها لغوه سبحانه وإن أتى بها لغوه يُعدّ مشركاً. مثلاً تقبيل الأضوحة هل هو عبادة لصاحب القبر أو تكريم وتعظيم له؟ وهكذا الصلاة في المشاهد وعند قبور الأنبياء، فهل هي عبادة لصاحب القبر وإن كانت الصلاة

الصفحة 11

الله أو هي عبادة لله ولكن تتضمن التبرك بصاحب القبر؟ ومثل ذلك مسألة الاستعانة في نفس الآية، فمع الاعتراف بحصر الاستعانة بالله سبحانه، فلا شكّ عند العقلاء عامة أنّه تجوز الاستعانة بالأحياء في الأمور الدنيوية، ولكن إذا استعان بإنسان حيّ فيما يرجع إلى الأمور الغيبية، كرد ضالته ووء مرضه فهل هو استعانة تخالف الحصر المذكور في الآية أو لا؟ وهناك صورة ثالثة أبهم من الصورة الثانية وهي: إذا استعان بميتّ بنحو من الأنحاء كما إذا طلب منه الدعاء والاستغفار في حقّه فهل هي استعانة تخالف الحصر أو لا؟ وقس على ذلك بعض ما يرد عليك من الصور المودّة بين العبادة والتكريم، أو بين الاستعانة الجائزة والمحرّمة.

ولأجل أن يكون البحث أكثر علمية وموضوعية علينا ولا البحث في مسألتين:

1 . تحديد مفهوم العبادة حتى يتميّز عن التكريم والتبجيل والتبرك.

2 . تحديد الاستعانة المختصة بالله وفصلها عن الاستعانة الجائزة.

كل ذلك في ضوء القوان الكريم.

الصفحة 12

المسألة الأولى:

مفهوم العبادة وحدّها

بالرغم من عناية اللغويين والمفسّرين بتفسير لفظ العبادة وتبيينها، لكن لا تجد في كلماتهم ما يشفي الغليل، وذلك لأنهم

فسّروه بأعمّ المعاني وأوسعها وليس مرادفاً للعبادة طوداً وعكساً.

- 1 . قال الراغب في المفردات: "العبودية: إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها، لأنها غاية التذلل، ولا يستحق إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى ولهذا قال: **{وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه...}**".
- 2 . قال ابن منظور في لسان العرب: "أصل العبودية: الخضوع والتذلل".
- 3 . قال الفيروز آبادي في القاموس المحيط: "العبادة:

الصفحة 13

الطاعة".

- 4 . قال ابن فارس في المقاييس: "العبد: الذي هو أصل العبادة، له أصلان متضادان، والأول من ذينك الأصليين، يدل على لين وذل، والآخر على شدة وغلظ".
- هذه أقوال أصحاب المعاجم ولا تشذ عنها أقوال أصحاب التفاسير وهم يفسرونه بنفس ما فسر به أهل اللغة، غير مكتوئين بأنفسهم، تفسير لها بالمعنى الأعم.

- 1 . قال الطوي في تفسير قوله: **{إياك نعبد}** اللهم لك نخشع ونذل ونستكين إقرا لك يا ربنا بالروبية لا لغوك. إن العبودية عند جميع العرب أصلها الذلة وأنها تسمى الطريق المذل الذي قد وطنته الأقدام وذلته السابلة معبداً، ومن ذلك قيل للبعير المذل بالركوب للحواج: معبداً، ومنه سمي العبد عبداً، لذلته لولاه⁽¹⁾.
- 2 . قال الزجاج: معنى العبادة: الطاعة مع الخضوع، يقال: هذا طريق معبد إذا كان مذللاً لكثرة الوطء، وبعير معبد إذا كان مطليا بالقطان، فمعنى **{إياك نعبد}**: إياك نطيع،

1- الطبري، التفسير 1: 53، ط دار المعرفة، بيروت.

الصفحة 14

(1) الطاعة التي نخضع منها .

- 3 . وقال الرّمخشي: العبادة: أقصى غاية الخضوع والتذلل، ومنه ثوب ذو عبدة أي في غاية الصفاة، وقوة النسج، ولذلك لم تستعمل إلا في الخضوع لله تعالى لأنه مولى أعظم النعم فكان حقيقاً بأقصى غاية الخضوع⁽²⁾.
- 4 . قال البغوي: العبادة: الطاعة مع التذلل والخضوع وسمي العبد عبداً لذلته وانقياده يقال: طويق معبداً، أي مذللاً⁽³⁾.
- 5 . قال ابن الجوزي: المراد بهذه العبادة ثلاثة أقوال:
- أ . بمعنى التوحيد **{إياك نعبد}** عن علي وابن عباس.
- ب . بمعنى الطاعة كقوله تعالى **{لا تعبد الشيطان}**.
- ج . بمعنى الدعاء⁽⁴⁾.

- 6 . قال البيضاوي: العبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل، ومنه الطويق المعبد أي مذللاً، وثوب ذو عبدة، إذا كان في غاية الصفاة، ولذلك لا تستعمل إلا في الخضوع

1- الزجاج، معاني القرآن 1: 48.

2 - ارمخشوي، الكشف 1: 10.

3 - البغوي، التفسير 1: 42.

4 - ابن الجوزي، زاد المستتير 1: 12.

الصفحة 15

(1)
الله تعالى .

وسياتي أنّ تفسير العبادة بغاية الخضوع ربّما يكون تفسوا بالأخص، إذ لا تشترط في صدقها غاية الخضوع، ولذلك يعدّ الخضوع المتعلّف الذي يقوم به أبناء الدنيا أمام الله سبحانه عبادة، وإن لم يكن بصورة غاية التعظيم، وربّما يكون تفسوا بالأعم، فإنّ خضوع العاشق لمعشوقه ربّما يبلغ نهايته ولا يكون عبادة.

7 . وقال القوطبي: نعبد، معناه نطيع، والعبادة: الطاعة والتذلّل، وطريق معبد إذا كان مذكلاً للسالكين (2) .

8 . وقال الوري: العبادة عبلة عن الفعل الذي يؤتى به لغرض تعظيم الغير وهو مأخوذ من قولهم: طريق مُعبد (3) .

وإذا قصّونا النظر في تفسير العبادة، على هذه التعريف وقلنا بأنّها تعريف تامّة جامعة للأقواد ومانعة للاغيار، لزم رمي الأنبياء والموسلين، والشهداء

1- البيضاوي، أنوار التنزيل 1: 9.

2 - القوطبي، جامع أحكام القآن 1: 145.

3 - الوري، مفاتيح الغيب 1: 242، في تفسير قوله تعالى: (إياك نعبد).

الصفحة 16

والصديقين بالشوك وأنهم . نستعيز بالله . لم يتخلّصوا من مصائد الشوك، ولزم ألا يصحّ تسجيل أحد من الناس في قائمة الموحدين. وذلك لأنّ هذه التعريف تفسر العبادة بأنّها:

1 . إظهار التذلّل.

2 . إظهار الخضوع.

3 . الطاعة والخشوع والخضوع.

4 . أقصى غاية الخضوع.

وليس على أديم الأرض من لا يتذلّل أو لا يخشع ولا يخضع لغير الله سبحانه وإليك بيان ذلك:

ليست العبادة نفس الخضوع أو نهايته

إنَّ الخضوع والتذللَّ حتى إظهار نهاية التذللَّ لا يسوي العبادة ولا يعدُّ حدًّا منطقيًّا لها، بشهادة أن خضوع الولد أمام والده، والتلميذ أمام أستاذه، والجنديُّ أمام قائده، ليس عبادة لهم وإن بالغوا في الخضوع والتذللَّ حتى ولو قبل الولد قدم الوالدين، فلا يعد عمله عبادة، لأنَّ الله

الصفحة 17

سبحانه يقول: **وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ** {الإسراء/24}.

وأوضح دليل على أنَّ الخضوع المطلق وإن بلغ النهاية لا يعدُّ عبادة هو أنه سبحانه أمر الملائكة بالسجود لآدم وقال: **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ** {البقرة/34} (وآدم كان مسجوداً له ككونه سبحانه مسجوداً له، مع أن الأول لم يكن عبادة والإلَّم يأمر بها سبحانه، إذ كيف يأمر بعبادة غيره وفي الوقت نفسه ينهى عنها بتاتاً في جميع الشرائع من لدن آدم (عليه السلام) إلى الخاتم(صلى الله عليه وآله)، ولكن الثاني أي الخضوع لله، عبادة.

والله سبحانه يصوح في أكثر من آية بأنَّ الدعوة إلى عبادة الله سبحانه والنهي عن عبادة غيره، كانت أصلاً مشتركاً بين جميع الأنبياء، قال سبحانه: **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** {النحل/36} وقال سبحانه: **لَوْ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ** {الأنبياء/25} وفي موضع آخر من الكتاب يعد سبحانه التوحيد في العبادة: الأصل المشترك بين جميع الشرائع السماوية، إذ يقول: **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا** {آل عمران/64}،

الصفحة 18

ومعه كيف يأمر بسجود الملائكة لآدم الذي هو من مصاديق الخضوع النهائي؟ وهذا الاشكال لا يندفع إلا بنفي كون الخضوع عبادة، ببيان أنَّ للعبادة مقوماً لم يكن موجوداً في سجود الملائكة لآدم. ولم يكن آدم فحسب هو المسجود له بأمره سبحانه، بل يوسف الصديق كان نظيره، فقد سجد له أهواه وإخوته، وتحقق تأويل رؤياه بنفس ذلك العمل، قال سبحانه حاكياً عن لسان يوسف: **{إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ}** (يوسف/4).

كما يحكي تحققه بقوله سبحانه: **{وَرَفَعَ أَبُوبِيهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا}** (يوسف/100) ومعه كيف يصح تفسير العبادة بالخضوع أو نهايته.

إنَّه سبحانه أمر جميع المسلمين بالطواف بالبيت، الذي ليس هو إلا حواً وطينا، كما أمر بالسعي بين الصفا والمروة، قال سبحانه: **{لِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ}** (الحج/29) وقال سبحانه: **{إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا}** (البقرة/158).

فهل ترى أنّ الطواف حول التّراب والجبال والحجر عبادة لهذه الأشياء بحجّة أنّه خضوع لها؟!

إنّ شعار المسلم الواقعي هو التذللّ للمؤمن والتعزّز على الكافر، قال سبحانه: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة/54).

فمجموع هذه الآيات وجميع مناسك الحج، يدلّان بوضوح على أنّ مطلق الخضوع والتذللّ ليس عبادة. ولو فسروها أئمة اللغة بالخضوع والتذللّ، فقد فسروها بالمعنى الأوسع، فلا محيص حينئذ عن القول بأنّ العبادة ليست إلّا نوعاً خاصاً من الخضوع. ولو سُميت في بعض الموارد مطلق الخضوع عبادة، فإنّما سُميت من باب المبالغة والمجاز، يقول سبحانه: ﴿رَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وُكَيْلًا﴾ (التوقان/43) فكما أنّ إطلاق اسم الإله على الهوى مجاز فكذا تسمية متابعة الهوى عبادة لها، ضرب من المجاز.

ومن ذلك يعلم مفاد قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (يس/61.60).

فإنّ من يتبع قول الشيطان فيتناسل في الصلاة والصيام، ويترك الفرائض أو يشرب الخمر ويرتكب الزنا، فإنه بعمله هذا يقتوف المعاصي لأنّه يعبد عبادة الله، أو عبادة المشركين للأصنام ولأجل ذلك، لا يكون مشركاً محكوماً عليه بأحكام الشرك، وخرجاً عن عداد المسلمين، مع أنّه من عبدة الشيطان لكن بالمعنى الواسع الأعم من الحقيقي والمجرّي. وربما يتوسع في إطلاق العبادة فتطلق على مطلق الإصغاء لكلام الغير، وفي الحديث: "من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق يؤدي عن الله عزّ وجلّ فقد عبد الله، وإن كان الناطق يؤدي عن الشيطان فقد عبد الشيطان" (1).

توجيه غير سديد

إنّ بعض من يفسر العبادة بالخضوع والتذللّ عندما يقف أمام هذه الدلائل الوافة، يحاول أن يجيب ويقول: إن سجود الملائكة لآدم أو سجود يعقوب وأبنائه ليوسف، لم

1- الكليني، الكافي 6: 434.

يكن عبادة له ولا ليوسف، لأنّ ذلك كان بأمر الله سبحانه ولولا أمره لانقلب عملهم عبادة لهما.

وهذا التوجيه بمغزٍ عن التحقيق، لأنّ معنى ذلك أنّ أمر الله يغيّر الموضوع، ويبدل واقعه إلى غير ما كان عليه، مع أنّ الحكم لا يغيّر الموضوع.

فلو نفترض أنّه سبحانه أمر بسبّ المشرك والمنافق فأمره سبحانه لا يخرج السبّ عن كونه سباً، فلو كان مطلق الخضوع

المتجلى في صورة السجود لآدم، أو ليوسف، عبادة لكان معنى ذلك أنه سبحانه أمر بعبادة غوه، مع أنها فحشاء بتصريح الذكر الحكيم لا يأمر بها سبحانه، قال تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}** (الأعراف/28). وهناك تعريف للعبادة لجملة من المحققين تأتي بها واحداً بعد الآخر:

1 . نظرية صاحب المنار في تفسير العبادة

إن صاحب المنار لما وقف على بعض ما ذكرناه حاول أن يفسر العبادة بشكل يبعه عن بعض ما ذكرناه،

الصفحة 22

لذلك أخذ في التعريف قيوداً ثلاثة:

- أ . العبادة ضرب من الخضوع بالغ حد النهاية.
- ب . ناشئ عن استشعار القلب عظمة المعبود، لا يعرف منشأها.
- ج . واعتقاده بسلطة لا يُدرك كنهها وماهيتها.

ويلاحظ على هذا التعريف:

أولاً:

أن التعريف غير جامع، وذلك لأنه إذا كان مقوم العبادة، الخضوع البالغ حد النهاية فلا يشمل العبادة الفاقدة للخشوع والخضوع التي يؤديها أكثر المتساهلين في أمر الصلاة، وربما يكون خضوع الجندي لقائده أشد من هواء المتساهلين الذين يتصورون الصلاة عبادة وجهداً.

وثانياً:

ماذا يريد من قوله "عن استشعار القلب عظمة المعبود لا يعرف منشأها"؟ فهل يعتقد أن الأنبياء كانوا يستشعرون عظمة المعبود ولكن لا يعرفون منشأها. مع أن غوهم يستشعر عظمة المعبود ويعرف منشأها، وهو أنه سبحانه: الخالق البرئ، المصور، أو أنه سبحانه هو

الصفحة 23

الملك القوّس، السلام، المؤمن، المهيم الغريز الجبار المتكبر.

وثالثاً:

ماذا يريد من قوله: "واعتقاده بسلطة لا يدرك كنهها وماهيتها"؟
فإن أراد شريطة هذا الاعتقاد في تحقق العبادة، فلزم ذلك عدم صدقها على عبادة الأصنام والأوثان، فإن عبادة الأوثان يعبدونها وكانوا يعتقدون بكونهم شفاء عند الله سبحانه فقط لا أن لهم سلطة لا يدرك كنهها وماهيتها.

2 . نظرية الشيخ شلتوت، زعيم الأهر

وقد عوّف شيخ الأهر الأسبق العبادة بنفس ما عرفها به صاحب المنار، ولكنه يختلف عنه لفظاً ويتحدّ معه معنى، فقال:
العبادة خضوع لا يحدُّ، لعظمة لا تحدُّ (1).

وهذا التعريف يشترك مع سابقه نقداً وأشكالا، وذلك أنّ العبادة ليست منحوسة في خضوع لا يحدُّ بل الخضوع المحددّ أيضاً ربّما يعدّ عبادة، كما إذا كان الخضوع بأقلّ مراتبه. وكذلك لا يشترط كون الخضوع لعظمة لا تحدُّ، إذ

1- تفسير القرآن الكريم: 37.

الصفحة 24

ربما تكون عظمة المعبود محدودة في زعم العابد كما هو الحال في عبادة الأصنام، الذي كان الدافع إلى عبادتها كونها شفعاء عند الله.

3 . تعريف ابن تيمية

وأكثر التعريف عرضة للإشكال هو تعريف ابن تيمية إذ قال:

"العبادة اسم جامع لكلّ ما يحبه الله ويرضاه من الأفعال والأعمال الباطنية والظاهرية كالصلاة والزكاة والصيام، والحج، وصدق الحديث وأداء الأمانة، وبرّ الوالدين وصلّة الأرحام" (1).

وهذا الكاتب لم يفوّق . في الحقيقة . بين العبادة والتوّب، وتصور أنّ كل عمل يوجب القوي إلى الله، فهو عبادة له تعالى أيضاً، في حين أنّ الأمر ليس كذلك، فهناك أمور توجب رضا الله، وتستوجب ثوابه لكنها قد تكون عبادة كالصوم والصلاة والحج، وقد تكون موجبة للقوب إليه دون أن تعدّ عبادة، كالإحسان إلى الوالدين، وإعطاء

1- مجلة البحوث الإسلامية، العدد 2: 187، نقلا عن كتاب العبودية: 38.

الصفحة 25

الزكاة، والخمس، فكل هذه الأمور (الأخوة) توجب القوي إلى الله في حين لا تكون عبادة. وإن سمّيت في مصطلح أهل الحديث عبادة، فواد منها كونها نظير العبادة في توتّب الثواب عليها.
وبعبارة أخرى: أنّ الإتيان بهذه الأعمال يعدّ طاعة لله ولكن ليس طاعة عبادة.
وإن شئت قلت: إنّ هناك أموراً عبادية وأموراً قوبية، وكل عبادة مقوبة، وليس كل مقوب عبادة، فدعوة الفقير إلى الطعام، والعطف على اليتيم . مثلاً . توجب القوب ولكنها ليست عبادة بمعنى أن يكون الآتي بها عبداً بعمله لله تعالى.
وإذا وقفت على قصور هذه التعريف هنا نذكر في المقام تعريفين، كلّ يلائم الآخر.



التعريف الأول:

العبادة هي الخضوع للشيء بما أنه إله

إن لفظ العبادة من المفاهيم الواضحة، وربما يكون ظهور معناها الواضح مانعاً عن التحديد الدقيق لها غير أنه يمكن تحديدها من خلال الإمعان في المورد التي تستعمل فيها تلك اللفظة، فقد استعملها القرآن في مورد الموحدين والمشركين، وقال سبحانه في الدعوة إلى عبادة نفسه **{لَوْلَكُنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّأَكُم} (بُورَس/104)** وقال سبحانه: **{قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ} (الزمر/11)**.

وقال في النهي عن عبادة غيره: **{إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا} (العنكبوت/17)** وقال: **{أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْتُونَ} (الصافات/95)**: فعلى الباحث أن يقتصر معنى العبادة بالدقة في أفعال العباد، وعقائدهم من غير فوق بين عبادة

الموحدين وعبادة المشركين فيجعله حداً منطقياً للعبادة.

إن الإمعان في ذلك المجال يدفعنا إلى القول بأن العبادة عندهم عبادة عن الفعل الدال على الخضوع المقترن مع عقيدة خاصة في حق المخضوع له، فالعنصر المقوم للعبادة حينئذ أمران:

1 . الفعل المنبني عن الخضوع والتذلل.

2 . العقيدة الخاصة التي تدفعه إلى عبادة المخضوع له.

أما الفعل، فلا يتجوز عن قول أو عمل دال على الخضوع والتذلل بأي مرتبة من مراتبها، كالتكلم بكلام يؤدي إلى الخضوع له أو بعمل خلجي كالركوع والسجود بل الانحناء بالأأس، أو غير ذلك مما يدل على ذلته وخضوعه أمام موجود. وأما العقيدة التي تدفعه إلى الخضوع والتذلل فهي عبادة عن:

1 . الاعتقاد بالوحيته.

2 . الاعتقاد بربوبيته.

أما الأول فالإلوهية منسوبة إلى الله وهو ليس بمعنى المعبود. وإن اشتهر في الألسن. بل كونه معبوداً من لولم

كونه إلهاً لا أنه نفس معناه، بل إلهه. كما يشهد عليه الذكر الحكيم. مرادف، للفظ الجلالة ويختلف معه في الكليّة والجزئية، فالله كليّ ولفظ الجلالة علم جزئي.

وتوضيح ذلك أنّ الموحدين عامة والوثنيين كلهم، وعبدة الشمس والكواكب يعتقدون بالوحيّة معبوداتهم إما لكون المعبود إلهاً

كبيراً أو إلهاً صغواً، إما إلهاً صادقاً أو إلهاً كاذباً، فالاعتقاد بالوهمية المعبود بهذا المعنى هو المقوم لصدق العبادة. ولأجل أنه لا يستحق العبادة إلا من كان إلهاً لذلك يؤكد القرآن بأنه لا إله إلا الله ومع ذلك فكيف تعبدون غيره. يقول سبحانه: **{الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}** (الحجر/96).

{وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ} (الفرقان/68).

{وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا} (مريم/81).

{أَإِنِّكُمْ لِتَشْهَدُونَ أَنْ مَعَ اللَّهِ آلِهَةٌ أُخْرَى} (الأنعام/19).

وحاصل الآيات أن غيره سبحانه لا يستحق العبادة لأنها من شؤون الإلهية وهي من خصائص الله سبحانه لا

الصفحة 29

غير، فيتحصل من ذلك أن العبادة عبادة عن الخضوع أمام موجود للاعتقاد بأنه إله حقيقي أو مجلي، ولو لا ذلك الاعتقاد لا يوصف الخضوع بالعبادة، والشاهد عليه أن العاشق الولهان إذا خضع لمعشوقته، خضوعاً بالغاً لا يعد عبادة لها، لأنه لم يصدر عن الاعتقاد بالوهميتها وأنها إله، وإنما صدر عن اعتقاد بأنها جميلة تجذب الإنسان بنفسيتها وجمالها. ويدل على ما ذكرنا من أن دعوة المشركين وخضوعهم ونداءهم وسؤالهم كانت مصحوبة بالاعتقاد بالوهمية أصنامهم، أنه سبحانه يفسر الشرك في بعض الآيات باتخاذ إله مع الله.

ويقول: **{وَأَعْرَضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفِينَاكَ الْمَسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}**

(الحجر/96).

وفي بعض الآيات يندد بالمشركين بأنه ليس لهم إله غير الله فكيف يعبدون غيره، ويقول: **{أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ سِوَى اللَّهِ}**

{عَمَّا يُشْرِكُونَ} (الطور/43).

والإمعان في هذه الآيات ونظاؤها يؤكد أن اندفاع المشركين إلى عبادة الأصنام أو اندفاع الموحدين إلى

الصفحة 30

عبادة الله هو اعتقادهم بكونهم آلهة أو كونه إلهاً، فهذا الاعتقاد كان يدفعهم إلى العبادة، ولأجل ذلك كانوا يقدمون لمعبوداتهم النور والقوايين وغيرهما من التقاليد والسنن. ولما كانت كلمة التوحيد تهدم عقيدتهم بالوهمية غيره سبحانه لذلك كانوا يستكبرون

عند سماعها، كما قال سبحانه: **{إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ}** (الصفافات/35).

ثم إن الاعتقاد بالوهمية الأصنام لا يلائم الاعتقاد بكون المعبود خالقاً للعالم حتى يقال بأن المشركين في الجاهلية كانوا

موحدين في الخالقية، كما يدل على ذلك أكثر من آية. قال سبحانه:

{وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ} (الزخرف/9).

إذ للإلهية شؤون عندهم يقوم ببعضها الإله الأعلى كخلق السموات والأرض، وبعضها الآخر الآلهة الفرعية المتخيلة

عندهم، كغوان الذنوب والشفاعة المطلقة المقبولة بلا قيد وشروط، وبما أن هذين الأمرين الأخيرين من شؤون الإله الأعلى

الزعموة فيها حظّولا نصيب، يركّز القرآن على إثباتهما لله سبحانه فقط ويقول: **{وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ}** (آل عمران/135). ويقول: **{قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا}** (الزمر/44).

وفي ضوء ذلك فالمشركون كانوا معتقدين بالإله الأعلى الأكبر وفي الوقت نفسه يعتقدون بآلهة شتى ليس لهم من الشؤون مالالإله الأعلى منها، وفي الوقت نفسه كانت الآلهة عندهم مخلوقين لله سبحانه، مفوضين إليهم بعض الشؤون كما عرفت.

تؤادف الإله ولفظ الجلالة

إنّ الدليل الواضح على أنّ الإله وادف لفظ الجلالة ولكن يفتوق عنها بالجزئية والكلية الأمور التالية:

أ. وحدة المادة، إذ الأصل للفظ الجلالة هو الإله، فحذفت الهزة وعوض اللام، ولذلك قيل في النداء: "يا الله، بالقطع كما يقال: يا إله" (1).

ب. الآيات التي استدلّ فيها على وحدة الإله صريحة في أنّ العواد من الإله هو المتصرف المدبر، أو من بيده

1- الزمخشري، الكشاف 1: 30.

أزمة الأمور أو ما يقرب من ذلك، ولا يصح تفسير الإله بالمعبود والإفسد الاستدلال، واليك الآيات الواردة في ذلك المجال.

1. **{لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا}** (الأنبياء/22) فإنّ الوهان على نفي تعدد الآلهة لا يتم إلا إذا جعلنا "الإله" في الآية بمعنى المتصرف المدبر أو من بيده أزمة الأمور أو ما يقرب من هذين، ولو جعلنا الإله بمعنى المعبود لانتقص الوهان لبداهة تعدد المعبودين في هذا العالم، مع عدم فساد النظام الكوني وقد كانت الحجاز يوم نزول هذه الآية مزدحمة بالآلهة بل ومركوها مع انتظام العالم وعدم فساده.

وعندئذ يجب على من يجعل "الإله" بمعنى المعبود أن يقيده بلفظ "بالحق" أي لو كان فيهما معبودات . بالحق . لفسدتا، ولما كان المعبود بالحق مدواً أو متصرفاً لزم من تعدده فساد النظام وهذا كله تكلف لا مبرر له.

2. **{مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لُذِبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقُ وَلِعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ}** (المؤمنون/91).

ويتمّ هذا الوهان أيضاً لو فسّرنا الإله بما ذكرنا من أنه كلي، ما يطلق عليه لفظ الجلالة. وان شئت قلت: إنه كناية

عن الخالق أو المدبر المتصرف أو من يقوم بأفعاله وشؤونه، والمناسب في هذا المقام هو الخالق، ويلزم من تعدده ما رتبّ عليه في الآية من ذهاب كلّ إله بما خلق واعتلاء بعضهم على بعض.

ولو جعلناه بمعنى المعبود لانتقص الوهان، ولا يؤرم من تعدده أي اختلال في الكون. وأدل دليل على ذلك هو المشاهدة. فإن في العالم آلهة متعددة، وقد كان في أطراف الكعبة المشرفة ثلاثمائة وستون إلهًا ومع ذلك لم يقع أي فساد أو اختلال في الكون.

فيؤرم من يفسر (الإله) بالمعبود لتكاثف تكاليفه بما ذكرناه في الآية المتقدمة.

3 . **{قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَابْتِغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا}** (الإسراء/42) فإن ابتغاء السبيل إلى ذي العرش

من لوزم تعدد الخالق المدبر المتصرف، أو من بيده زُمة أمور الكون أو غير ذلك مما يرسمه في ذهننا معنى الإلوهية، وأما تعدد المعبود فلا يلازم ذلك إلا بالتكلف الذي أشرنا إليه فيما سبق.

4 . **{إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبِ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا**

الصفحة 34

وَرِدُونَ * لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَّوَّاهَا} (الأنبياء/99.98) والآية تستدل بورود الأصنام والأوثان في النار، على بطلان

كونها آلهة إذ لو كانت آلهة ما ورواها النار.

والاستدلال إنما يتم لو فسرنا الآلهة بما أشرنا إليه، فإن خالق العالم أو مدوره والمتصرف فيه أو من فوض إليه أفعال الله أجل من أن يحكم عليه بالنار وأن يكون حصب جهنم.

وهذا بخلاف ما إذا جعلناه بمعنى المعبود فلا يتم الوهان، لأن المفروض أنها كانت معبودات وقد جعلت حصب جهنم. ولو أمعنت في الآيات التي ورد فيها لفظ الإله والآلهة لقررت على استظهار ما اخترناه.

حصيلة البحث:

أن العبادة عبارة عن الخضوع الصادر عن يتخذ الخاضع إليها، وما ذكرناه على وجه التفصيل هو الذي أوغى الشيخ جواد البلاغي في قالب التعريف وقال: العبادة ما يرونها مشعراً بالخضوع لمن يتخذ الخاضع إليها، ليوفيه بذلك ما واه له من حق الامتياز بالإلوهية⁽¹⁾.

1- البلاغي، آلاء الرحمن: 57، ط صيدا.

الصفحة 35

التعريف الثاني:

العبادة عبارة عن الخضوع للمشيء

على أنه رب

واللغويون وإن ذكروا للربّ معاني مختلفة كالخالق والمالك والصاحب والمصلح، ولكن الظاهر أنّ أكثر هذه المعاني من لوزم المعنى الواحد، ويمكن تصوّره بأنّه من فوّض إليه أمر الشيء من حيث الإصلاح والتدبير والتربية، فلو أطلق الربّ على الخالق فلأنّه يقوم بإصلاح مخلوقه وتدبّيره، وتربيته. ولو أطلق على صاحب المزرعة ربّ الضيعة، أو على سائس القوم أنّه ربّهم، فلأنّ الأوّل يقوم بتصليح أمور المزرعة، والثاني بتدبير أمور القوم وشؤونهم وقس على ذلك سائر الأمور، فالله سبحانه ربّ العالمين، و **{ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ }** (الصافات/5) و **{ هُوَ رَبُّ }**

الصفحة 36

{ الشُّؤْيُ } (النجم/49) فلأجل أنّه سبحانه مدبّر ومدير ومتصرف في شؤونها والقائم عليها. فلو أطلق الربّ على مالك الدابة فلأجل أنّه فوّض إليه إصلاح المملوك.

هذا من جانب، ومن جانب آخر زى الله سبحانه يعلّل في بعض الآيات حصر العبادة في الله سبحانه حيث حصر الوبوبية به دون غيره، فتدلّ بصراحة على أنّ العبادة من شؤون الوبوبية، واليك بعض الآيات. وقال المسيح:

{ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ } (المائدة/72). **{ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونُ }** (الأنبياء/92). **{ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صَوَاطٌ مَسْتَقِيمٌ }** (آل عمران/51).

وإذا عرفت هذين الأمرين:

1 . الربّ من فوّض إليه تدبير الشيء وإصلاحه وتربيته.

2 . إنّ الآيات تعللّ حصر العبادة في الله بكونه ربّاً.

فستعرف أنّ اتّسام الخضوع، والسؤال والدعاء بالعبادة من شؤون الاعتقاد بكون المخضوع له ربّاً بيده مسير الخاضع ومصوّه، وإن شئت قلت: بيده شأن أو

الصفحة 37

شؤون من حياته الدنيوية أو الأخروية بيده، فالخضوع المقرون بهذا الاعتقاد يُصفي عليه عنوان العبادة.

وليعلم أنّ المراد من كون الربّ مالكا لشأن من شؤون حياته ليس المراد هو الملكية القانونية والوضعية التي تعطى للإنسان حيناً وتسلب عنه حيناً آخر، بل المراد الملكية التكوينية المستمدة من الخلقية كما في الإله الأعلى أو من تفويض الإله الأعلى لها، كما هو الحال عند آلهة المشركين . على زعمهم . الذين يعتقدون بأنّه سبحانه فوّض إليهم بعض شؤون حياتهم، كغفوان الذنوب والشفاعة، بل يظهر ممّا نقله ابن هشام في سبوتته أنّ الشوك دخل مكة في صورة الشوك في الوبوبية فيما يرجع إلى الاستمطار، يقول ابن هشام:

"كان عمرو بن لحي " أول من أدخل الوثنية إلى مكة ونواحيها، فقدرأى في سوه إلى البلقاء من أراضي الشام أناساً

يعبدون الأوثانَ وعندما سألهم عما يفعلون قائلاً:

ما هذه الأصنام التي رَأكم تعبدونها؟

قالوا: هذه أصنام نعبدُها فنستمطرها فتمطرونا، ونستنصرها فتنصرنا!

الصفحة 38

فقال لهم: أفلا تعطوني منها فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه؟

وهكذا استحسّن طريقتهم واستصحب معه إلى مكة صنماً كبيراً باسم "هبل" ووضع على سطح الكعبة المشرفة ودعا الناس إلى عبادتها⁽¹⁾.

إذن فاستمطار المطر من هذه الأوثان والاستعانة بها يكشف عن أنّ بعض المشركين كانوا يعتقدون بأنّ لهذه الأوثان دخلاً في تدبير شؤون الكون وحياة الإنسان.

نتيجة البحث

إذا عرفنا أنّ مقومّ العبادة عبادة عن اعتقاد السائل والخاضع والداعي أو المنادي بأنّ المسؤول والمخضوع له "إله" و"رب" يملك شيئاً مما يرجع إليه في عاجله أو آجله، في مسوه ومصوه، وإنه يقوم بذلك لكونه خالقاً أو مفوضاً إليه من قبل الخالق، فيقوم على وجه الاستقلال والأصالة، تستطيع أن تقضي في الأعمال التي يقوم بها اشياح الأنبياء ومحيوهم، بأنّها ليست عبادة أبداً وإنما هي

1- سيرة ابن هشام 1: 79.

الصفحة 39

من مصاديق التكريم والاحترام وإن بلغت نهاية التذلل، لأنّها لا تتطلق من اعتقاد الخاضع بالوهية النبي، ولا ربوبيته بل

تتطلق عن الاعتقاد بكونهم عباد الله الصالحين، وعباده المكرمين الذين لا يعصون الله وهم بأمره يعملون، نظير:

1 . تقبيل الأضحية وأواب المشاهد التي تضمّ أجساد الأنبياء والأولياء، فإنّ ذلك ليس عبادة لصاحب القبر والمشهد، لفقدان عنصر العبادة فيما يفعله الإنسان من التقبيل واللمس وما شابه ذلك.

2 . إقامة الصلاة في مشاهد الأولياء توكراً بالأرض التي تضمنت جسد النبي أو الإمام، كما توكّ بالصلاة عند مقام إراهيم

اتباعاً لقوله تعالى: **فَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مِصَلًّى** (البقرة/125).

3 . التوسّل بالنبي سواء كان توسلاً بذاته وشخصه، أو بمقامه وشخصيته أو بدعائه في حال حياته ومماته، فإنّ ذلك كله لا

يكون عبادة لعدم الاعتقاد بالوهية النبي ولا ربوبيته، وبعدّ من التوسّل بالأسباب، سواء كان المدعو قاوراً على إنجاز العمل أو

عاجزاً، غاية الأمر يكون التوسّل

الصفحة 40

في صورة العجز غير مفيد، لا متّسماً بالشوك، فلو افترضنا أنّ الأنبياء والأئمة في حال الممات غير قارين على شيء

فالدعاء والتوسل بهم مع كونهم عاجزين لا يجعل العمل شركاً، بل يجعله لغواً، مع أن أصل المبنى باطل أي أنهم غير قارين في حال الممات.

4 . طلب الشفاعة من الأنبياء أو النبي الأكرم ليس شركاً لأنه يطلبها منه بقيد أنه عبد مأنون لا أنه مفوض إليه أمرها، وفي الواقع إما أن يكون مأنوناً فيشفع وإما أن يكون الطلب لغواً.

5 . الاستغاثة بالأرواح المقدسة ليس إلا كاستغاثة بهم في حال حياتهم، فهي على وجه يتسم بالشوك من غير فرق بين حالي الحياة والممات ولا يتسم به على وجه آخر، كذلك فلو استغاث به بما أنه عبد أقوه الله تعالى على الإجابة حياً وميتاً، يكون من قبيل التوسل بالأسباب، وإن استغاث به بما أنه إله أو رب يقوم بالاستغاثة أصالة واستقلالاً وأنه فوض إليه حياة المستغيث عاجلاً وآجلاً، فهو شوك من غير فرق بين الحالتين.

هذا خلاصة البحث حول حصر العبادة بالله سبحانه،

الصفحة 41

وإذا أمعنت فيما ذكرنا يمكنك على بعض ما أنزلته بعض المناهج الفكرية في الأوساط الإسلامية حول هذه الأمور، التي نسبت جلّ المسلمين إلى الشرك في العبادة مع أنهم بمنأى عن الشرك.

الفوضى في التطبيق بين الإمام والمأموم

لقد ترك الإهمال في تفسير العبادة تفسيراً منطقياً، فوضى كبيرة في مقام التطبيق بين الإمام والمأموم فزى أن إمام الحنابلة أحمد بن حنبل (142.641 هـ) صدر عن فطرة سليمة في تفسير العبادة، وأفتى بجواز مسّ منبر النبي (صلى الله عليه وآله) التورك به وبقوه وتقبيلهما عندما سأله ولده عبد الله بن أحمد، وقال: سألته عن الرجل يمسّ منبر النبي (صلى الله عليه وآله) ويتورك بمسّه، ويقبله، ويفعله، ويفعل بالقبر مثل ذلك، يريد بذلك التقرب إلى الله عز وجل؟ فقال: "لابأس بذلك"⁽¹⁾.

هذه هي فوضى الإمام . الذي يفتخر بمنهجه أحمد بن تيمية، وبعده محمد بن عبد الوهاب . ولم ير بأساً بذلك،

1- أحمد بن حنبل، العلل ومعرفة الرجال 2: 492، برقم: 3243، تحقيق الدكتور وصي الله عباس، ط بيروت 1408.

الصفحة 42

لما عرفت من أن العبادة ليست مجرد الخضوع، فلا يكون مجرد التوجه إلى الأجسام والجمادات عبادة، بل هي عبادة عن الخضوع نحو الشيء، باعتبار أنه إله أو رب، أو بيده مصير الخاضع في عاجله وآجله، وأما مسّ المنبر أو القبر وتقبيلهما، كل ذلك لغاية التكريم والتعظيم لنبي التوحيد، وإن كان لغاية التورك فلا يتجاوز التورك في المقام عن تورك يعقوب بقميص ابنه يوسف، ولم يخطر بخلد أحد من المسلمين إلى اليوم الذي جاء فيه ابن تيمية بالبدع الجديدة، أنها عبادة لصاحب القميص والمنبر والقبر أو لنفس تلك الأشياء.

ولما كانت فوضى الإمام ثقيلة على محقق الكتاب، أو من علق عليه لأنها تتناقض مع ما عليه الوهابية وتبطل أحلام ابن

تيمية، ومن لفّ لفه، حاول ذلك الكاتب أن يوفق بين جواب الإمام وما عليه الوهابية في العصر الحاضر، فقال: "أما مسّ منبر النبي فقد أثبت الإمام ابن تيمية في الجواب الباهر (ص14) فعله عن ابن عمر دون غيره من الصحابة، وروى أبو بكر بن أبي شيبه في المصنف (4/121) عن زيد بن الحباب قال: حدّثني أبو مودود قال:

الصفحة 43

حدّثني يزيد بن عبد الملك بن قسيط قال: رأيت نواً من أصحاب النبي إذا خلا لهم المسجد قاموا إلى زمانة المنبر الوقاء فمسحوها، ودعوا قال: ورأيت يزيد يفعل ذلك.
وهذا لما كان منوه الذي لامس جسمه الشريف، أما الآن بعد ما تغيّر لا يقال بمشروعية مسحه تركاً به".

ويلاحظ على هذا الكلام:

بعد وجود التناقض بين ما نقل عن ابن تيمية من تخصيص المسّ بمنبر النبيّ با بن عمر، وما نقله عن المصنف لابن أبي شيبه من مسح نفر من أصحاب النبيّ زمانة المنبر:

وَأولاً:

لو كان جواز المسّ مختصاً بالمنبر الذي لامسه جسم النبي الشريف دون ما لايمس كان على الإمام المفتي أن يذكر القيد، ولا يُطلق كلامه، حتى ولو افترضنا أن المنبر الموجود في المسجد النبوي في عهده كان نفس المنبر الذي لامسه جسم النبي الأكرم، وهذا لا يغيب عن ذهن المفتي، إذ لو كان تقبيل أحد المنويين نفس التوحيد، وتقبيل المنبر الآخر عين الشوك، لما جاز للمفتي أن يغفل التقسيم والتصنيف.

وثانياً:

أنّ ما يفسده هذا التحليل أكثر مما يصلحه،

الصفحة 44

وذلك لأنّ معناه أنّ لجسمه الشريف تأثيراً في المنبر وما تترك به، وهذا يناقض التوحيد الربوبي من أنه لا مؤثر في الكون إلاّ الله سبحانه، فكيف يعترف الوهابي بأنّ لجسمه الشريف في الجسم الجامد تأثيراً وأنه يجوز للمسلمين أن يتأثروا به عبر القرون.

ثم إنّ المعلق استثنى مسّ قبر النبي (صلى الله عليه وآله) والتوك به، ومنعهما وقال في وجهه:

وأما جواز مسّ قبر النبي والتوك به فهذا القول غريب جداً لم أر أحداً نقله عن الإمام، وقال ابن تيمية في الجواب الباهر لزوار المقابر (ص31): اتفق الأئمة على أنه لا يمسّ قبر النبي ولا يقبله، وهذا كله محافظة على التوحيد، فإنّ من أصول الشوك بالله اتّخاذ القبور مساجد" (1).

لكن يلاحظ عليه:

كيف يقول: لم أجد أحداً نقله عن الإمام، أو ليس ولده أبو عبد الله راوية أبيه وكتبه يروي هذه الفتوى؟ وهو ثقة عند

الحنابلة!

وأما التفريق بين مسّ المنبر والقبر بجعل الأول نفس

1- تعليقة المحقق، نفس الصفحة.

الصفحة 45

التوحيد، والثاني أساس الشرك، فمن غائب الأمور، لأنّ الأمرين يشتركان في التوجه إلى غير الله سبحانه، فلو كان هذا محرز الشرك، فالموضوعات سيان، وإن فوق بينهما بأنّ الماس، ينتفع بالأول دون الثاني لعدم مسّ جسده بالثاني فالزمه كون الأول نافعاً والثاني أمراً باطلاً دون أن يكون شركاً.

ولورجع المحقق إلى الصحاح والمسانيد وكتب السورة والتاريخ، لوقف على أنّ التبرك بالقبر ومسه، كان أمراً أئجاً بين المسلمين في عصر الصحابة والتابعين، ولأجل إيقاف القرئ على صحة ما نقول نذكر نموذجين من ذلك:

1 . إنّ فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين بنت رسول الله حضرت عند قبر أبيها (صلى الله عليه وآله) وأخذت قبضة من تواب القبر تشمّه وتبكي وتقول:

ماذا على من شمّ توبة أحمد
ألا يشمّ مدى الزمان غالياً

الصفحة 46

صُبَّتْ على الأيامِ صون
أليالياً⁽¹⁾

صُبَّتْ عليّ مصائب لو
أنّها

إنّ هذا التصوّف من السيدة الزهراء المعصومة يدل على جواز التبرك بقبر رسول الله وتبرته الطاهرة.

2 . إنّ بلال . مؤذن رسول الله . أقام في الشام في عهد عمر بن الخطاب فوأي في منامه النبي (صلى الله عليه وآله) وهو يقول:

"ما هذه الجفوة يا بلال؟ أما أنّ لك أن ترورني يا بلال؟" فانتبه حزيناً وجلاً خائفاً، فوكبر راحلته وقصد المدينة فأتى قبر النبي (صلى الله عليه وآله) فجعل يبكي عنده ويوغ وجهه عليه، فأقبل الحسن والحسين عليهما السلام فجعل يضمهما ويقبلهما... إلى آخر الخبر⁽²⁾.

-
- 1- لقد ذكر هذه القضية جمع كثير من المؤرخين، منهم السمهودي في وفاء الوفا 2: 444 - والخالدي في صلح الاخوان: 57، وغيرهما.
- 2- ابن الأثير، أسد الغابة 1: 28، وغيره من المصادر.



حصر الاستعانة في الله

هذه هي المسألة الثانية التي طرحت في صدر المقال وقلنا: إنّ المسلمين في أقطار العالم يحصرون الاستعانة في الله سبحانه ومع ذلك يستعينون بالأسباب العادية، جرياً على القاعدة السائدة بين العقلاء، ولا يرونه مخالفاً للحصر، كما أنّ المتوسلين بأرواح الأنبياء يستعينون بهم في مشاهدتهم ووزراتهم ولا يرون تعرض ذلك مع حصر الاستعانة بالله سبحانه، وذلك لأنّ الاستعانة بغير الله يمكن أن تتحقق بصورتين:

1 . أن نستعين بعامل . سواء أكان طبيعياً أم غير طبيعي . مع الاعتقاد بأنّ علمه مستند إلى الله، بمعنى أنه قادر على أن يعين العباد ويزيل مشاكلهم بقوته المكتسبة من الله

وإذنه.

وهذا النوع من الاستعانة . في الحقيقة . لا ينفك عن الاستعانة بالله ذاته، لأنّه ينطوي على الاعتراف بأنّه هو الذي منح تلك العوامل، ذلك الأثر، وأذن بها، وإن شاء سلبها وجردّها منه.

فإذا استعان الوراع بعوامل طبيعية كالشمس والماء وحرث الأرض، فقد استعان بالله . في الحقيقة . لأنه تعالى هو الذي منح هذه العوامل: القوة على إنماء ما أودع في بطن الأرض من بذر ومن ثم إنباته والوصول به إلى حدّ الكمال.

2 . وإذا استعان بإنسان أو عامل طبيعي مع الاعتقاد بأنّه مستقلّ في وجوده، أو في فعله عن الله، فلا شك أنّ ذلك الاعتقاد يصير شركاً والاستعانة به عبادة.

فإذا استعان زراع بالعوامل المذكورة وهو يعتقد بأنّها مستقلّة في تأثرها أو أنّها مستقلّة في وجودها ومادتها كما في فعلها وقدرتها، فالاعتقاد شرك والطلب عبادة.

وبذلك يظهر أنّ الاستعانة المنحصرة في الله المنصوص عليها في قوله تعالى **{وإياك نستعين}** هي الاستعانة بالمعونة المستقلّة النابعة من ذات المستعان به،

غير المتوقّفة على شيء، فهذا هو المنحصر في الله تعالى، وأمّا الاستعانة بالإنسان الذي لا يقوم بشيء إلاّ بحول الله وقوته وإذنه ومشيتته، فهي غير منحورة بالله سبحانه، بل إنّ الحياة قائمة على هذا الأساس، فإنّ الحياة البشرية مليئة بالاستعانة بالأسباب التي تؤثر وتعمل بإذن الله تعالى.

وعلى ذلك لا مانع من حصر الاستعانة في الله سبحانه بمعنى، وتجاوزها بغوه بمعنى آخر وهو ما له نظر في الكتاب

العزيز.

ولإيقاف القرئ على هذه الحقيقة نلفت نظره إلى آيات تحصر جملة من الأفعال الكونية في الله تلة، مع أنها تنسب نفس

الأفعال في آيات أخرى إلى غير الله أيضاً، وما هذا إلا لعدم التنافي بين النسبتين لاختلاف نوعيتهما فهي محصورة في الله

سبحانه مع قيد الاستقلال، ومع ذلك تنسب إلى غير الله مع قيد التبعية والعرضية.

الآيات التي تنسب الظواهر الكونية إلى الله وإلى غيره:

1 . يقول سبحانه: **{وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ}** (الشعراء/80) . بينما يقول سبحانه فيه (أي في العسل): **{شِفَاءٌ لِلنَّاسِ}** (النحل/69).

الصفحة 50

2 . يقول سبحانه: **{إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَاقُ}** (الذريات/58) بينما يقول: **{وَأَوَّازُهُمْ فِيهَا}** (النساء/5).

3 . يقول سبحانه: **{أَنْتُمْ تَرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الرَّاعُونَ}** (الواقعة/64) . بينما يقول سبحانه: **{يُعْجِبُ الرِّعَاءُ لِيُعْظِرَ بِهِمُ الْكِفَارِ}** (الفتح/29).

4 . يقول تعالى: **{وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ}** (النساء/81) . بينما يقول سبحانه: **{يَلَىٰ وَرَسُولُنَا لَدَيْهِمْ يُكْتَبُونَ}** (الزخرف/80).

5 . يقول تعالى: **{ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ}** (يونس/3) . بينما يقول سبحانه: **{فَالْمُدْرَاتِ أَمْرًا}** (النمل/5).

6 . يقول سبحانه: **{اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا}** (الزمر/42) . بينما يقول: **{الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ}** (النحل/32).

إلى غير ذلك من الآيات التي تنسب الظواهر الكونية تلة إلى الله، وتلة إلى غيره تعالى.

والحل أن يقال: إن المحصور بالله تعالى هو انتساب هذه الأمور على نحو الاستقلال، وأما المنسوب إلى غيره فهو على

نحو التبعية، وبإذنه تعالى، ولا تعرض بين

الصفحة 51

النسبتين ولا بين الاعتقاد بكليهما.

فمن اعتقد بأن هذه الظواهر الكونية مستندة إلى غير الله على وجه التبعية لا الاستقلال لم يكن مخطئاً ولا مشوكاً، وكذا من

استعان بالنبى أو الإمام على هذا الوجه.

هذا مضافاً إلى أنه تعالى الذي يعلمنا أن نستعين به فنقول: **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}** . يحثنا في آية أخرى على الاستعانة

بالصبر والصلاة فيقول: **{وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ}** (البقرة/45) وليس الصبر والصلاة إلا فعل الإنسان نفسه.

حصيلة البحث:

إن الآيات الواردة حول الاستعانة على صنفين:

الصنف الأول: يحصر الاستعانة في الله فقط ويعتوه الناصر والمعين الوحيد دون سواه.

والصنف الثاني: يدعونا إلى سلسلة من الأمور المعينة (غير الله) ويعتوها ناصوة ومعينة، إلى جانب الله.
أقول: اتضح من البيان السابق وجه الجمع بين هذين النوعين من الآيات، وتبين أنه لا تعرض بين الصنفين

الصفحة 52

مطلقاً، إلا أن فريقاً نجدهم يتمسكون بالصنف الأول من الآيات فيخطئون أي نوع من الاستعانة بغير الله، ثم يضطرون إلى إخراج (الاستعانة بالقوة الإنسانية والأسباب المادية) من عموم تلك الآيات الحاصوة للاستعانة بالله بنحو التخصيص، بمعنى أنهم يقولون:

إن الاستعانة لا تجوز إلا بالله إلا في المولد التي أذن الله بها، وأجاز أن يستعان فيها بغوره، فتكون الاستعانة بالقوة الإنسانية والعوامل الطبيعية. مع أنها استعانة بغير الله. جاؤة ومشروعة على وجه التخصيص، وهذا مما لا يرتضيه الموحّد. في حين أنّ هدف الآيات هو غير هذا تماماً، فإن مجموع الآيات يدعو إلى أمر واحد وهو: عدم الاستعانة بغير الله، وأن الاستعانة بالعوامل الأخرى يجب أن تكون بنحو لا يتنافى مع حصر الاستعانة في الله بل تكون بحيث تعدّ استعانة بالله لا استعانة بغوره.

وبتعبير آخر: إنّ الآيات تريد أن تقول: بأنّ المعين والناصر الوحيد والذي يستمد منه كلّ معين وناصر، قدرته وتأثيره، ليس إلا الله سبحانه، ولكنة. مع ذلك. أقام

الصفحة 53

هذا الكون على سلسلة من الأسباب والعلل التي تعمل بقدرته وأمر باستمداد النوع من الأصل، ولذلك تكون الاستعانة به كالاستعانة بالله، ذلك لأنّ الاستعانة بالنوع استعانة بالأصل.

واليك فيما يلي إشارة إلى بعض الآيات من الصنفين:

{وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} (آل عمران/126).

{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} (الحمد/5).

{وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (الأنفال/10).

هذه الآيات نماذج من الصنف الأول واليك فيما يأتي نماذج من الصنف الآخر الذي يدعونا إلى الاستعانة بغير الله من

العوامل والأسباب:

{وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ} (البقرة/45).

{وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى} (المائدة/2).

{مَا مَكَّنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ} (الكهف/95).

{وَإِنْ اسْتَنْصَرُواكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ} (الأنفال/72).

ومفتاح حلّ التعارض بين هذين الصنفين من الآيات هو ما ذكرناه وملخصه:

على غوه لا في وجوده ولا في فعله وهو الله سبحانه:

وأما العوامل الأخر فجميعها مفتوة . في وجودها وفعلها . إليه وهي تؤدي ما تؤدي بإذنه ومشيتته وقدرته، ولو لم يعط

سبحانه تلك العوامل ما أعطاه من القوة ولم تجر مشيئته على الاستمداد منها لما كانت لها أية قوة على شيء .

فالمعين الحقيقي في كل المراحل . على هذا النحو تماماً . هو الله فلا يمكن الاستعانة بأحد باعتباره معيناً مستقلاً . لهذه الجهة

حصر هنا الاستعانة في الله وحده، ولكن هذا لا يمنع بناتاً من الاستعانة بغير الله باعتباره غير مستقل (أي باعتباره معيناً

بالاعتماد على القوة الإلهية) ومعلوم أنّ استعانة . كهذه . لا تنافي حصر الاستعانة في الله سبحانه لسببين:

أولاً:

لأنّ الاستعانة المخصوصة بالله هي غير الاستعانة بالعوامل الأخرى، فالاستعانة المخصوصة بالله هي: (ما تكون باعتقاد

أنّه قادر على إعانتنا بالذات، وبدون الاعتماد على غوها، في حين أنّ الاستعانة بغير الله سبحانه إما هي على نحو آخر، أي

مع الاعتقاد بأنّ المستعان قادر

على الإعانة مستنداً على القوة الإلهية، لا بالذات، وبنحو الاستقلال، فإذا كانت الاستعانة . على النحو الأول . خاصة بالله

تعالى فإنّ ذلك لا يدل على أنّ الاستعانة بصورتها الثانية مخصوصة به أيضاً.

ثانياً:

إنّ استعانة . كهذه . غير منفكة عن الاستعانة بالله، بل هي عين الاستعانة به تعالى، وليس في نظر الموحّد (الذي وى أن

الكون كلّ من فعل الله ومستنداً إليه) مناص من هذا.

وأخيراً نذكر القرئ الكريم بأنّ مؤلف المنار حيث إنه لم يتصور للاستعانة بالأرواح إلا صورة واحدة لذلك اعتورها

ملائمة للشرك فقال:

"ومن هنا تعلمون: إنّ الذين يستعينون بأصحاب الأضوحة والقبور على قضاء حوائجهم وتيسير أمرهم وشفاء أمراضهم

ونماء حرثهم وزرعهم، وهلاك أعدائهم وغير ذلك من المصالح هم عن صراط التوحيد ناكبون، وعن ذكر الله معوضون" (1).

ويلاحظ عليه:

بأنّ الاستعانة بغير الله (كالاستعانة

بالعوامل الطبيعية) على نوعين:

إحداهما عين التوحيد، والأخرى موجبة للشرك، إحداهما مذكرةً بالله، والأخرى مبعدة عن الله.

إنَّ حدَّ التوحيد والشرك ليس هو كون الأسباب ظاهرية أو غير ظاهرية وانمًا هو استقلال المعين وعدم استقلاله، وبعبارة أخرى المقياس: هو الغنى والفقير، هو الأصالة وعدم الأصالة.

إنَّ الاستعانة بالعوامل غير المستقلة المستندة إلى الله، التي لا تعمل ولا تؤثر إلا بإذنه تعالى غير موجبة للغفلة عن الله، بل هو خير موجّه، ومذكّر بالله. إذ معناها: انقطاع كل الأسباب وانتهاء كل العلل إليه.

ومع هذا كيف يقول صاحب المنار: "أولئك عن ذكر الله معوضون" ولو كان هذا النوع من الاستعانة موجباً لنسيان الله والغفلة عنه لزم أن تكون الاستعانة بالأسباب المادية الطبيعية هي أيضاً موجبة للغفلة عنه.

على أنَّ الأعجب من ذلك هو شيخ الأهر الشيخ محمود شلتوت الذي نقل . في هذا المجال . نصّ كلمات عبده نون زيادة ونقصان، وختم المسألة بذلك، وأخذ

الصفحة 57

بالحصر في **{إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}** غافلا عن حقيقة الآية وعن الآيات الأخرى المتروضة لمسألة الاستعانة⁽¹⁾.

اجابة على سؤال

إذا كانت الاستعانة بالغير على النحو الذي بيّناه جائزة فهي تستلزم نداء أولياء الله والاستغاثة بهم في الشدائد والمكروه، وهي غير جائزة وذلك لأنّ نداء غير الله في المصائب والحوائج تشريك الغير مع الله، يقول سبحانه: **{وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا}** (الجن/18) ويقول تعالى: **{وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ}** (الأعراف/197) ويقول عزّ من قائل: **{وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ}** (فاطر/13). إلى غير ذلك من الآيات التي تخص الدعاء لله ولا تسيغ دعوة غيره.

وقد طرّح هذا السؤال الشيخ الصنعاني حيث قال: وقد سمى الله الدعاء عبادة بقوله: **{ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} * إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي}** فمن هتف باسم نبيّ أو صالح بشيء فقد دعا النبي والصالِح، والدعاء عبادة بل مخّها فقد عبد

1- راجع تفسير شلتوت: 39.36.

الصفحة 58

غير الله وصار مشركاً⁽¹⁾.

الجواب:

إنَّ النقطة الحاسمة في الموضوع تكمن في تفسير الدعاء وهل كل دعاء عبادة وبينهما من النسب الأربيع هي التسليوي حتى يصح لنا أن نقول كل دعاء عبادة، وكل عبادة دعاء، أو أنّ الدعاء أعمّ من العبادة وأنّ قسماً من الدعاء عبادة وقسماً منه ليس

كذلك؟ والكتاب العزيز يوافق الثاني لا الأول، وإليك التوضيح:

لقد استعمل القرآن لفظ الدعاء في مواضع عديدة ولا يصح وضع لفظ العبادة مكانه، يقول سبحانه حاكياً عن نوح: **﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لِنِيْلًا وَنَهَارًا﴾** (نوح/5) وقال سبحانه حاكياً عن لسان إبليس في خطابه للمذنبين يوم القيامة: **﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾** (إبراهيم/22) إلى غوهما من الآيات التي ورد فيها لفظ الدعاء، أفصح القول بأن نوحاً دعا قومه أي عبدهم، أو أن الشيطان دعا المذنبين أي عبدهم؟ كل ذلك يحقنا إلى أن نقف في تفسير الدعاء وقفة تمعن حتى نميز الدعاء. الذي

1- الصنعاني، تنزيه الاعتقاد كما في كشف الارتباب: 284.

الصفحة 59

هو عبادة عمّا ليس كذلك.

والإمعان فيما تقدم في تفسير العبادة يميّز بين القسمين فلو كان الداعي والمستعين بالغير معتقداً بألوهية المستعان ولو

ألوهية صغيرة كان دعوته عبادة ولأجل ذلك كان دعاء عبدة الأصنام عبادة لا اعتقادهم بألوهيتها، قال سبحانه: **﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾** (هود/101).

وما ورد من الآيات في السؤال كلها من هذا القبيل فأنها وردت في حق المشركين الفائلين بألوهية أصنامهم وأوثانهم باعتقاد استقلالهم في التصوف والشفاعة وتفويض الأمور إليهم ولو في بعض الشؤون. ففي هذا المجال يعود كل دعاء عبادة، ويفسر

الدعاء في الآيات الماضية والتالية بالعبادة، قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالِكُمْ﴾ (الأعراف/194). **﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ نُؤْنِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾** (الاسراء/56). **﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾** (الاسراء/57). **﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾** (يونس/106). **﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ﴾** (فاطر/14).

الصفحة 60

وما ورد في الأثر من أنّ الدعاء منح العبادة، يُرد منه دعاء الله أو دعاء الآلهة لا مطلق الدعاء وان كان المدعو غير إله لا حقيقة أو اعتقاداً.

وفي روايات أئمة أهل البيت إلماع إلى ذلك، يقول الإمام زين العابدين في ضمن دعائه: "... فسميت دعائك عبادة وتركه

استكبراً وتوعدت على تركه دخول جهنم داخرين" ⁽¹⁾ وهو يشير في كلامه هذا إلى قوله سبحانه: **﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ**

لَكُمْ﴾ * **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾** (غافر/60).

هذا هو الدعاء المسلوي للعبادة وهناك قسم آخر منه لا صلة بينه وبين العبادة وهو فيما إذا دعا شخصاً بما أنه إنسان وعبد من عباد الله غير أنه قادر على إنجاز طلبه بأقدار منه تعالى وإذن منه، فليس مثل هذه الدعوة عبادة بل سنة من السنن الإلهية في الكون، هذا هو ذو القرنين يواجه قوماً مضطهدين يطلبون منه أن يجعل بينهم وبين يأهوج ومأهوج سداً فعند ذلك يخاطبهم

ذو القرنين بقوله: **{مَا مَكْنَى فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعْتِنُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا}** (الكهف/95)

1- الصحيفة السجادية، دعاؤه برقم 45.

الصفحة 61

وها هو الذي من شيعه موسى يستغيث به، يقول سبحانه: **{فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ}** (البقرة/255) **{إِذْ تَضَعُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَعْدَائِكُمْ}** (آل عمران/153) فهذا النوع من الدعاء قامت عليه الحياة البشرية، فليس هو عبادة وإنما هو توسل بالأسباب، فإن كان السبب قارراً على إنجاز المطلوب كان الدعاء أمراً عقلائياً ولا يكون لغواً وعبثاً.

ثم إن القائلين بأن دعاء الصالحين عبادة، عند مواجهتهم لهذا القسم من الآيات وما تقتضيه الحياة الاجتماعية، ينتشثون بكل طلب حتى ينجبهم من الغرق ويقولون إن هذه الآيات تعود على الأحياء ولا صلة لها بدعاء الأموات، فكون القسم الأول جأواً وأنه غير عبادة؛ لا يلائم جواز القسم الثاني وكونه غير عبادة.

ولكن غيب عن هؤلاء أن الحياة والموت ليسا حدين للتوحيد والشرك ولا ملاكين لهما، بل هما حدان لكون الدعاء مفيداً أو لا، وبتعبير آخر ملاكان للجوانية وعدمها.

الصفحة 62

فلو كان الصالح المدعو غير قادر لأجل موته مثلاً تكون الدعوة أمراً غير مفيد لا عبادة له، ومن الغريب أن يكون طلب شيء من الحي نفس التوحيد ومن الميت نفس الشرك.

كل ذلك يوقفنا على أن القوم لم يدرسوا ملاكات التوحيد والشرك بل لم يدرسوا الآيات الواردة في النهي عن دعاء غيره،

فأخذوا بحرفية الآيات من دون تدبر مع أنه سبحانه يقول: **{كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ}** (ص/29).

ثم إن الكلام في أن دعاء الصالحين بعد انتقالهم إلى رحمة الله مفيد أو لا، يتطلب مجالاً آخر وسوف نستوفي الكلام عنه في رسالة خاصة حول وجود الصلة بيننا وبين أولياء الله في ضوء الكتاب والسنة.

جعفر السبحاني

تحرواً في 27 صفر المظفر 1416 هـ